محـاربـة العـرب
أو الاستئصـال من أجل الاحتلال

تـر: أ. شقـرون
جامعة الجزائر

Olivier Le Cour Grandmaison, Coloniser, Exterminer, sur la guerre et l'Etat colonial, Ed. Casbah Edition, P. (98- 103)

بينما كان العديد من النّواب، بما فيهم لامارتين (Lamartine) يشجبون ويحتجون على الاعتداءات والغارات (razzias) التي يشنها جيش إفريقيا، والموصوفة بدقة، لاسيما في جريدة Le Moniteur algérien، فإن غيزو (Guizot)، وزير الشؤون الخارجية، يَرُدّ بقوة مدافعا عن الضّباط المتواجدين بالجزائر. ورغم إقراره بوقائع الأحداث المستنكرة، فإنه يلقي المسؤولية على عاتق "العرب" وعلى قساوة قوانين الغزو والاحتلال، معيدا إلى الأذهان بأن هذه الأخيرة أحدثت، في أمريكا والهند، نفس الآثار التي يعتبرها "شرًّا محتومًا" و"شرعيّاً". ويُردِف قائلا: أمام "شعوب شبه متوحّشة"، متعوّدة على "التدمير"، و"القتل"، "يتحتّم علينا [...] استخدام وسائل أكثر عنفاً، وأحياناً أشدَ قساوةً من تلك التي يمليها الشعور الطبيعي للرّجال الذّين يقودون عساكرنا". إنه منطق رائع يتحوّل بمقتضاه جيش الغزو والاحتلال إلى جيش حامٍ للأراضي والسّكان الأوربيين المتواجدين بها، هذه الحماية التي تكمن في مبدأ التوسع المتواصل الهادف إلى إخضاع (Pacifier) مناطق جديدة. ومن أجل بلوغ ذلك الهدف ينبغي قَهْر "الأهالي" الذين أصبحوا، بحكم هذا المنطق المعكوس (inversion)، معتدين ممقوتين. وبعد تبريره للمجازر التي اقترفها جيش إفريقيا، يستنتج غيزو (Guizot) قائلاً: "أقول أنه لا مجال للتردّد لقد قضيتم في الجزائر على السلطة المحليّة؛ لقد

استحوذتم على البلاد، فهي في حوزتكم؛ فلابدّ عليكم من الاحتفاظ بها والسيطرة عليها واستغلالها"(1).

لقد ظهر هذا الإعلان بعد مضي عدة سنوات على العساكر الذين كرّسوا أنفسهم لهذه المهمة باستعمالهم لوسائل، يعرفونها كما يعرفها معظم معاصريهم، بأنها استثنائية مقارنة بتلك المستعملة في الصراعات المسلحة التقليدية التي تدور رحاها في القارة العجوز، حيث تتصارع الدول والجيوش النظامية. أن تتطلب الحرب، التي تشن على "**الأهالي**"، اللجوء إلى أساليب خاصة فهذا أمر بديهي ومفيد. فهو يسمح بتحويل الإستراتيجيات، التي وضعها العسكريون والتي تدافع عنها السلطة السياسية، إلى متطلبات تمليها الظروف التي لا تسمح باختيار آخر. إذا كان الرّجال الذين يشاطرون هذا الرأي يختلفون أحياناً حول بعض الممارسات، فإنّ الكثير يعتقدون بأنه ليس هناك إلاّ سبيل واحد وهو سبيل الحرب الشاملة (guerre à outrance). "**هؤلاء السكان [العرب] هل هم أعداء عاديون، أعداء مثلما نجدهم في أوروبا في حرب بين أمة وأمة، مثل هؤلاء، الذين واجهناهم في الحروب الإمبراطورية؟**" ذلك ما صرح به أبراهام دوبوا (Abraham Dubois) في المجلس الوطني، متصنّعا السؤال وهو يعلم الجواب علم اليقين. "**لا أيها السادة، إن الأمر أقل من ذلك وأسوأ من ذلك. هنا، قلّما توجد معارك وجها لوجه، ولا توجد**

1 : Le Moniteur universel, Assemblée nationale, 11 Juin 1846, P.1737

مجابهات كبيرة [...]. أنتم تواجهون همجيين (barbares) لا يمارسون الأسر❖ [...] متعصّبون ودمويّون، يلجأون إلى القتل والتشويه كلّما استطاعوا إلى ذلك سبيلا أو ظنّوا أن ذلك سيمر دون عقاب. تلكم هي الصفات التي تميّز هؤلاء السكان الذين يوالونا العداء، هذا هو العدو الذي عليكم دحره"(1)، هذا ما أدلى به مضيفا، وهو يدافع عن الإغارات المتبعة منذ عهد بعيد.

إن الأهداف المتبعة من قبل الفرنسيين في الجزائر -الغزو والاحتلال - والصّوَّر التي يرسمونها "**للأهالي**" تبرّر إذا اللّجوء إلى أساليب استثنائية لا تخفى على أحد.

«لا يمكن دراسة الشعوب المتوحشة إلاّ تحت ظلال السيوف».

في "**عمله حول الجزائر**" الذي أنجزه في أكتوبر 1841، دافع طوكفيل عن مواقف متقاربة من مواقفه. وذلك مع اعتراضه الشديد على انسحاب القوات الفرنسية، الشيء الذي قد يشجّع إنغلترا على التوطُّن في شمال إفريقيا، مع استنكاره للاحتلال الجزئي للجزائر الذي يرى أنّ مآله الفشل. إن هذا الاحتلال المتمثل في ترك أراضٍ شاسعة "**للعرب**" يسمح لهم بخوض ضد فرنسا حربا مستمرة تقضي على الأيّالة القديمة وتشكل خطرا جسيما على الاستعمار. إن السّنوات الإحدى عشرة التي مضت على نزول

1 : Le Moniteur universel, Assemblée nationale, 09 Juin 1846, P.1715

❖ : عبارة تلميحية يقصد بها أنهم يجهزون على الجرحى ويقتلون الأسرى (المترجم).

الفرنسيين بالجزائر تشهد على ذلك. فباستفادته من المماطلات السياسية لباريس (métropole)، استطاع الأمير عبد القادر أن ينظم قوات هامة، قادرة على نقل الحرب إلى مشارف مدينة الجزائر.

إذا أردنا السّيطرة حقّاً على الشواطئ ومختلف الموانئ الضرورية لمراقبة البحر المتوسط الغربي، فلا بدّ من التوغل في عمق البلاد لمحاربة القبائل التي ألَّبهَا الأمير على فرنسا. و"باختصار"، يقول طوكفيل، الذي يستعمل تعبيراً مؤثراً: "**الاحتلال الجزئي والاحتلال الكلي، إنّها النتيجة التي ينبغي استهدافها في اعتقادي**"(1). إنّ صاحب كتاب "La Démocratie en Amérique" يحارب، في الواقع، على جبهتين، الشّيء الذي يجعله في نظر معاصريه، وحتى في نظر مناهضي السّلطة اليوم، رجلاً معتدلاً مخلصاً لمبادئه، من أنصار الاعتدال حيث يفترض الائتلاف بين الواقعيّة والإنسانية. إلى هؤلاء الرّجال الذين ينادون بعدم ممارسة الأسر، هذه الممارسة المألوفة المُحبَّذَة لدى الكثير من الضباط -، فإنه يردّ عليهم "**أنّ ضررها أكثر من نفعها**". إذ أن ذلك، في الواقع، يثير ضغائن "**العرب**" التي يستغلها الأمير عبد القادر، الذي لا يتوقف، تحت الغطاء الديني، عن السعي إلى توحيد القبائل المناوئة لفرنسا، ذلك ما يعتقده طوكفيل، الحريص على المقومات العاطفية والثقافية، لحرب الجزائر. إن استعمال الجيش لوسائل يعتبرها "**وحشية**" تجعله ممقوتاً لدى السكان،

1 : A. de Tocqueville, « Travail sur l'Algérie », op. cit., P. 699

وتؤلبهم حول قادتهم وتعزّز الدّعم السّياسي والعسكري لدى من تحاربهم. ومن أجل كسر هذا العمل الانعكاسي واللاسياسي الذي يديم صراعا يزداد عنفا ويعرّض الاستعمار للخطر، فإنه يجب إيجاد سبل أخرى.

بعد انتقاده للعساكر المتهمين بقيادة حرب "**غير ذكية**"و"**شرسة**"، يهاجم طوكفيل هؤلاء محبي الإنسانية (philanthropes) الذين يستنكرون الوسائل التي يستعملها الجيش: "**كثيرا ما سعت، في فرنسا، رجالا أحترمهم لكنّني أختلف معهم. فهم يعتبرون أنّه من السيئ حرق المحاصيل، تفريغ الصَوامع من الحبوب واعتقال الرجال العزل والنسوة والأطفال. إنّ هذا يشكّل في نظري مقتضيات مؤسفة (nécessités fâcheuses)، تفرض نفسها على كلّ شعب يريد محاربة العرب**"(□). ومثلما هو الشأن بالنسبة للعديد من معاصريه، يبني طوكفيل خصوصيات الحرب الواجب خوضها على طبيعة "**الأهالي**". فعلى من يرغب في الاحتلال، حسب طبيعة هؤلاء، أن يرغب في الحصول على الوسائل الكفيلة بجلب العديد من الأوربيين. وحرصاً منه على تقديم تفاصيل دقيقة، ينادي مؤلف "La Démocratie en Amérique" بـ "**حظر التجارة**"، الذي يجب أن يؤدي مفعوله إلى الإسراع في إهلاك القبائل التي، بمنعها من بيع ماشيتها، لا تستطيع اقتناء المنتوجات التي هي في حاجة إليها.

1 : A. de Tocqueville, op. cit., P.704

باستعمال هذا الحظر (prohibition) بصفة دائمة ومحكمة، فإنه سيؤدي إلى تقويض مناطق التبادل التقليدية، استنزاف موارد السكان المعنيين ومضاعفة بؤسهم الشيء الذي سيدفعهم إلى الرضوخ والاستسلام. ومن أجل تسريع هذه العملية، يجب الأخذ بأسباب أكثر فاعلية ونجاعة. فهي تتمثل في تدمير الأقاليم التي يجب إخضاعها، حيث يضيف طوكفيل موضّحاً أنّه من أجل إضفاء الشرعية على هذا التّدمير وتجنب بعض الاعتراضات المحتملة فإن "**حق الحرب يسمح لنا بتدمير البلاد الشيء الذي يفرض علينا إتلاف المحاصيل في وقت الحصاد، أو في كل الأوقات باللجوء إلى الإغارات السّريعة التي تستهدف الرّجال أو الماشية**"(1). العبارات واضحة والأهداف دقيقة، فالأمر يتعلق بمضاعفة العمليات الهادفة إلى تقويض أسس المجتمعات الفلاحية والرعّوية للجزائر من أجل إلحاق أكبر الضّرر بالسّكان. في حالة عدم إمكانية هزم الجيوش النّظامية وإجبار دولتهم على التفاوض أو الاستسلام، كما هو الحال في أوروبا، فإنه من الضروري التعرّض للمدنيين ووسائل إنتاجهم ومصدر قوتهم.

إن تطبيق التدابير التي أوصى بها طوكفيل في وقت واحد تجعل من البؤس والجوع المُتعمّدَيْن سلاحين حقيقين للحرب يندمجان في إستراتيجية تدمير البلاد، في الوقت الذي تعدّ فيه هذه

1 : A. de Tocqueville, « Travail sur l'Algérie », op. cit., PP.705-706

الوسائل مُحرَّمة في القارة العجوز. هنالك آخرون، أكثر تطرفا ومن أنصار إبادة "**الأهالي**" واستئصالهم، يذهبون إلى نهاية هذا المنطق مؤكدين على استخدام المجاعة حتى الموت للإسراع في إنهاء صراع، قد يؤدي استمراره إلى تعريض الاحتلال للخطر. وكمناد هو الآخر بالإغارات وحظر التجارة وبيع القمح، يكرس بوديشون (Bodichon) هذه الممارسة حتى تكون آثارها أكثر فتكاً. "**ومن دون انتهاك القوانين الأخلاقية، والشرائع الدولية، كما ورد في كتابه الذي نُشِرَ، في مدينة الجزائر، في 1847، يمكننا محاربة أعداءنا الأفارقة بالحديد والنار والمجاعة**"، ومن دون "**إراقة الدماء**"، يمكننا "**استئصال - العرب - بهجوماتنا على وسائل تموينهم، الاستحواذ على المواد الغذائية، وبغلق طرق التموين وقطع أشجار التين والصبار (cactus) في كل أنحاء الجزائر**". إنّ مثل هذه الكتابات تدل على أن النقاشات حول هذه القضايا كانت عامة وكانت تنشطها شخصيات مختلفة لم تتردّد في الدّفاع عن حلول متطرفة لها كامل الشرعية بمجردّ استخدامها ضد سكّان من درجة سفلى لا يُجْدُونَ نفعاً.

وخلافاً **لبوديشون**، فإن **طوكفيل** لا يحوّل الإغارات والمجاعة إلى أسلحة دمار شامل لأنه كان يعارض دوماً إبادة "**الأهالي**"؛ غير أنه لا يمكنه أن يجهل بأن الاستعمال المطلق للوسائل الأولى سيخلّف عددا كبيرا من الضحايا المدنيين. وباستعمالها ضدّ

السكان الجزائريين، فإن الوسائل التي يدافع عنها تتميّز بكونها تجبر هؤلاء على التنقل، إمّا إلى المناطق التي هي في منأى عن القوات الفرنسية، إمّا إلى الأقاليم التي يسيطر عليها جيش إفريقيا. وفي كل الأحوال فإنه يتحتم على السّكان إخلاء القرى والأراضي التي لا يمكنها أن تعيلهم بسبب الدمار الحاصل. فإمّا الفرار أو الخضوع هذا هو الخيار الذي تجد نفسها أمامه قبائل الجزائر التي يسعى طوكفيل إلى إخضاعها (Pacifier) بالأساليب التي نعرفها والتي استطاع أن يتحقق من فعاليتها من خلال زيارته للمستعمرة. فهو يؤكّد "**إننا نزعج - العرب - كثيرا منذ وجود الجنرال لامورسيار حيث أنه حتى مسافة 15 أو 20 فرسخا من وهران لم يبق أحد من هؤلاء. لقد لجأوا كلّهم إمّا إلى الجبال، في نواحي معسكر، وإماّ خلف هذه الجبال الشيء الذي يستدعي الحصول على فيلق [...] يستطيع، بغارات شبيهة بغارات لامورسيار، إزعاجهم على ظهور الجبال وإجبارهم على الابتعاد أكثر. فلمّا يجدون أنفسهم محاصرين يجنحون إلى المصالحة**"[1] وفي الواقع فإن طوكفيل لا يقوم إلاّ بتعزيز الأساليب التي أعدّها الآخرون، الشيء الذي يتيح له، مع الابتعاد عن السّلوكات الإجرامية لبعض العساكر، بتقديم نفسه كرجل سياسة مسؤول أصبح، بفضل

1 : A. de Tocqueville, « Notes sur le voyage en Algérie de 1841 », in œuvres, op. cit., P.663

إقامته بالجزائر، يدرك "**المقتضيات المؤسفة**" لحرب استعمارية ضرورية حتى تسترجع فرنسا مكانتها كقوة أوروبية عظمى.

بتشجيعه على مضاعفة عدد الوحدات العسكرية الصغيرة المتنقلة القادرة على ضرب القبائل المتمردة في أي وقت، يرى طوكفيل، من أجل استكمال جملة الوسائل الضرورية لإخضاع البلد، أنه يجب شن "حملات كبيرة" تهدف إلى:

1 - الاستمرار في إظهار للعرب ولعساكرنا معا أنه لا توجد حواجز توقفنا في هذا البلد.

2 - العمل على تدمير كل ما يشبه تجمعا دائما للسّكان، أو بعبارة أخرى، كلّ ما يشبه مدينة. أعتقد أنه من الأهمية بمكان منع بقاء أو إقامة مدينة في مناطق نفوذ الأمير عبد القادر(□).

1 : A. de Tocqueville, « Travail sur l'Algérie », op. cit., P.706